نظرات في النفس والحياة

— ٤ —

من نظرات أشسترفيلد

فيليب دورمر ستانهوب لورد تشسترفيلد من نبلاء الانجليز . وأهم مؤلفاته رسائله الى ابنه وقد ضمنها نصائحه التي اكتسبها من خبرته في مخالطة الناس فقد شغل مناصب مختلفة وباشر أناساً كثيرين من طبقات مختلفة إذ كان أولاً عضواً في مجلس النواب ثم في مجلس اللوردات ثم سفيراً في هولاندة ثم حاكماً لايرلندة ثم وزيراً . ورسائله ذخر مملوء خبرة بالنفوس وكنز من تجارب الحياة . وقد أسرف الدكتور صمويل جونسون الأديب الانجليزي في ذمها ولكنه اعترف في ثنايا ذمه بما فيها من فطنة وخبرة إذ قال لو فصل منها ما لا يجمل التخلق به لصلحت كي يقرأها كل فتى ، وأوجه الاختلاف بينهما كثيرة منها ان جونسون كان ينمق الرسائل في الأخلاق النظرية ويحتذي ما درسه في الكتب ، وتشسترفيلد كان يسترسل في وصف النفوس كما خبرها بأسلوب سهل موجز حتى عُدَّ آية في بلاغة الايجاز . ومنها أن جونسون في أيام فقره تطلّع الى أن يمده النبيل الغني بمعونة تعينه على نشر مصنفاته ، فلم يفعل اللورد أو انه تباطأ أو أهمله مدة فأرسل اليه الدكتور جونسون رسالته التي كانت كصيحة بوق يؤذن بعصر جديد وباعتماد الأدباء على كسبهم بدل الاعتماد على معونة النبلاء . ومؤرخو الأدب يقولون ان ابن تشسترفيلد الذي كتبت له الرسائل لم ينتفع بها انتفاعاً كبيراً ولم يفده ذكاء ولا خبرة . ولا غرابة فالكتب لا تخلق عقلاً ولا تنشىء ذكاء غير موجود وانما تفطّن وتربي ما هو موجود ، والخبرة قلما تفيد إلا إذا طلبها المرء بنفسه . وكثير من الناس يعالجون التجارب ولا ينتفعون بها فكيف بها اذا كانت تلقيناً وقولاً يقوله غيرهم ، وانما يكون نفع التجارب اذا صادفت النفوس توفيقاً واستعداداً .

وكل ما يقال في ابن تشسترفيلد انه لم يشتهر فضلاً كبيراً ولا نقصاً خطيراً ، وانما كان من غمار الناس . وأمل المؤرخ الذي كان يأمل نبوغه بسبب الرسائل ، انما هو نوع من الاعتراف بكياستها وفطنتها

وقد أوردت نتفاً على سبيل الاعتبار منها، والتفكير فيها، لا على سبيل الترجمة الحرفية. وربما أدمجت بعضها في بعض :—

(١) بعض الناس يمدح نفسه بصيغة الذم فيكسو الفضائل لباس النقيصة والعيب ثم ينتقص نفسه بتلك الفضائل ويعيبها بتلك المحامد التي كساها كساء العيب كي يجعل مدح نفسه سائغاً لدى الناس. فيقول مثلاً: من عيوبي التي لا أستطيع ان أقاومها اني أقول الحق في غير موضعه، وأني بالصدق في غير مكانه. أو يقول: من عيوبي اني ما رأيت إنساناً مصاباً إلاّ وددت أن أشاركه في مصابه، كأني أحمل الدنيا أو كأني موكل بها. ولا أزال في تلك العادة حتى أقاسمه المصاب وأشاطره وأعينه على ما حل به وأهيء له من أمره رغداً ورشداً ... أو يقول: من نقائصي المذمومة أني كلما رأيت مظلوماً نصرته، وإن كان في نصره ضرر لي. ومن مقابحي التي لا أستطيع الخلاص منها أني كلما رأيت ضعيفاً أعنته على أمره ... والعاقل حقيق بالانصراف عن هذه الوسيلة التي توهمه إنها تحمل الناس على اعتبارهم له مدح نفسه، إذ هي لا تحملهم على الاغتفار بل تزيد الناس سخرية به وإزراء عليه — ومن الناس من يتخذ لنفسه شعاراً في أمر من الأمور ويوهم الناس أنه وحده كفيل به لاشريك له ويردده في كل فرصة حتى يمل الناس أمره ولا تنفعه طلاقته ولا أنه ذرب اللسان ذلقه، والناس أفتنان في هذه الأساليب المتقاربة. وفي المثالين المذكورين، المدح المراد للنفس، مدح لم يقصده صاحبه إلاّ بطريقة ملتوية ولكنها حيلة مكشوفة.

(٢) اذا أكثر رجل من القسم ولجّ في الحلف كي يحملك على أن تصدقه وكي يقنعك بحلفه في أمر لا يستدعي تصديقه كل هذا الحلف فهو في أكثر الأحايين كاذب فيما يقول وإلاّ ما تكلّف جهد الحلف كي يغني به كذبه، وكي يداوي شكه في تصديقك كلامه، وكي يعالج خوفه من رفضك قوله — وهذا يذكرني قصة رجل من أهل المدينة كان يقول للناس: أنا والله من قريش والحمد لله. فقال له سامع: الحلف والتحميد هنا أمران مُريبان. أي يدعوان الى الشك والريبة في صدقه. على أن الرجل قد يكون صادقاً في كله وإنما يعالج بالحلف اشتهاره لدى نفسه ولدى الناس بالكذب في أمور أخرى غيرها. وقد يكون الحلف عادة عوّدها ولكنها توقفه موقف الرجل الظنين المتهم في صدقه.

(٣) كثيرٌ من الناس يكرهون أن يُتّهموا بالحماقة أو الضعف أو السخف، أو الحقارة، أو ما شابه ذلك من أوجه النقص والعيب أكثر من كرههم أن يتهموا بالآثام والخطايا

والجرائم والشر — ولكن قما يقطن المباشر الى سبب هذا التفضيل ووجوبه إذ أن الرجل يكره ما يلحق به الاحتقار أكثر من كرهه ما يلحق به خوف الناس منه، وهو يعرف أن الناس قد يعجبون بالشر والخطايا ويزيد صاحبها عظماً وقدراً في نفوسهم ويفخرون بها. ولكن الناس لا يستعظمون السخف، ولا يجلون الحماقة والغباء، ولا يفخرون بهذه الصفات التي تزيد صاحبها احتقاراً في نظرهم فلا يستهين العاقل بنسبتها الى الناس اعتماداً على أنه لم يجعلهم من الأشرار ولم يقل إنهم من المجرمين فقد نسب إليهم ما هو أقبح في نظرهم وأكثر مجلبة للذم. على أنك قد ترى ساذجاً ينسبها الى صديق، فاذا غضب صديقه دُهش وقال من غير تعمد للسخرية أنا لم أقل إنه مجرم شرير ولم أقل إلا أنه سخيف!!

(٤) كل إنسان يُفضّل أن يمدحه مادح بالصفة التي يدعيها لنفسه، وليست فيه أو ليست غالبة عليه، على أن يمدحه بالصفات الممدوحة التي يُقِرُّ له بها الناس ويعترفون بفضله فيها. لأنه في الحالة الاولى يكسب مجدة جديدة ولا يكسب شيئاً في الحالة الثانية إلا اعتراف بعض الناس بما لا يشك فيه أكثر الناس ولا يمارون. وهذا يذكرنا أن الكاردينال ريشليو السياسي الشهير ما كان يبتهج اذا مدحه مادح بحنكته السياسية وخبرته وبراعته وانما كان يسره أن يمدحه مادح بإجادة فن من الفنون الجميلة لم يجده ولا يرع فيه ولا أتقنه. وهكذا أكثر الناس كأنهم ما سمعوا قول الامام علي رضي الله عنه (قيمة كل امرئ ما يحسن).

(٥) مهد لنفسك منفذاً الى عقول الناس من طريق قلوبهم وما تشتهي نفوسهم فان عقول أكثر الناس وعرة مسلك ملتوية، وعندي ان هذه النصيحة تنفع أيضاً مع من كان الطريق الى عقله موطّأً سهلاً ممهداً فاذا لجأت اليه من طريق قلبه وجدت عقله ازداد سهولة وصار أخف مؤونة وقد لا يخلفك طريق قلوبهم الا البطالة والملاينة وطيب الذكر وحسن القول.

(٦) كما أن النقود الصغيرة من العملة القليلة القيمة لا غنى عنها في معاملات الناس اليومية الصغيرة، فنقود الفكر واللفظ القليلة القيمة لا غنى عنها في مجالس الناس وعاداتهم ومفاكهاتهم. ومن أراد أن يستبعدها وان لا يتعامل معهم في أمثال تلك المجالس الا بالفكر العويص والرأي العميق والفلسفة البعيدة والألفاظ الفخمة والتقعر في الكلام كان مثله مثل الرجل الذي لا يريد أن يتعامل في المعاملات اليومية الصغيرة الا بقضبان الذهب النقية الكبيرة فتمتنع المعاملة. وهذا يذكرني قصة رجل كان له ابن هذه صفاته وكان الرجل في مرض الموت وأبى أن يرى ابنه الا اذا ترك هذه الصفات فوعد ابنه بتركها في زيارته

لأبيه ولكنه لم يستطع مغالبة طبعه فكان الموت أحب الى أبيه من زيارته

(٧) بعض الناس مولعون بالأحكام العامة وبالجمل المألوفة والأمثال السائرة يرددونها كلما أتيحت لهم فرصة ويوهمون أنفسهم أنها تصدق في كل حالة . والعاقل من تجنب الأحكام العامة والجمل المألوفة فليست حالة الا وفيها اختلاف قلّ أو كثر عما يشابهها من الحالات. وكذلك الأمم والطوائف والجماعات تختلف آحادها فليس من الصواب أن يحكم المرء على أمة أو طائفة أو جماعة من الناس حكماً عامّاً — وكثرة التشادق بالأمثال والجمل المألوفة التي صارت مسير الأمثال لا يلجأ اليها إلاّ من لا يميز دقائق الفكر . وبعض الناس لا ينتهي من مثل الا ليبدأ مثلاً آخر أو حكمة معروفة ، كأنه آلة الحاكي تردد من غير تمييز .

(٨) من العلم ما يكسب صاحبه رجاحة في عيون الناس وقلوبهم ومنه ما يكسبه زينة ، والاول لا غنى عنه ، ولكن ينبغي أن يذكر العاقل أن كثيراً من الناس لا يستطيعون وزن الامور ومعرفة رجاحتها وانما يحكمون بما هو رونق يرونه — واذا كان حكم الناس بالنظر أكثر من حكمهم بالفكر ، فقلما يصيب أحد النجاح الا اذا كان له نصيب من النوع الثاني من العلم .

(٩) ان المكارم الكبيرة والنعم السابغة قد يسديها المرء بيسر ويعملها بخرق ويهجم بها على من يجود عليه عنفاً أو طيش وحماقة فتنسي مكارمه ونعمه الى من يصطنعها عنده فتصير أسوأ من الاساءة إليه اذا جاءت بالعنف بنكر حمدها ويقل قربها ويقلل ألمها . فرب نعمة قد تجلب عدواً وإساءة قد لا تنفّر صديقاً .

(١٠) المناكفة في الامور الصغيرة من علامات سفولة النفس وكثيراً ما تكون مصحوبة بالشعور بالنقص يداويه صاحبه بمناكفة أو مباراة أو مغاضبة ، فتكون أظهر لنقصه عند من عرف طبائع النفوس

(١١) من أسباب النجاح الصبر على سماع الحديث الغث المُمل ، أو على سماع رثاثات الرجل الشاكي أو المُلحّ ، وهو إصغاء لا يلزمك هزّ تحمله — أو خفة ترمها وتتكلفها وتتنفذها — وقد تجد شيئاً من الفكاهة اذا عوّدت نفسك هذا الصبر وقد تجمع الى الفكاهة فائدة أخرى وهي دراسة نفس محدثك وفي دراسة النفوس لذّة بالرغم من ألم ذلك الصبر ومضضه وبعض من اشتهر باللباقة من الساسة ، وبالحنكة فيها ، أكثر بضاعتهم الاصغاء لا بتسام

(١٢) اذا حدثت الناس وتبسطت وتبهلت ظن من ينصب الحبائل للناس ويدبر الوسائل لاقتناص الكسب منهم إنك لست ممن يَنصب الشرك أو الشباك فلا يُعد لك عدة، ولا يتخذ لك أهبة، ولا يلجأ الى الحذر معك، كما أن ذوي السذاجة يركنون الى طيب قلبك، ويستنيمون الى سلامة طويتك فتربح في الحالتين

(١٣) الأغرار من الشبان ومن لم ينتفع بتجاربه من الرجال يرون أنهم يكسبون بالعنف والشدة في كل معاملة أو معاشرة أكثر مما يكسبون بدهاء الخبرة ولباقتها وتأنيها في معالجة الأمور، ويعدون كل هذه الصفات ضعفاً وعجزاً وجبناً ورياء، وإنما صفات لا تليق وهم في عنفهم وحدتهم يدّعون لأنفسهم الحكمة كما يدّعي السكران بأنه غير مخمور — وقد يكون ادعاؤه مضحكاً يدل على انه سكران، وإن أنكر ذلك إذ يترنح ويتلعثم ويتلطع ويخلط ولا يبين في كلامه ويتكلف الاتزان ويتغاضب تارة ويعاتب تارة وهذا أيضاً شأن الاغرار الذين ليس لهم إلا سبيل العنف

(١٤) اذا كان لك فضل فليس السبيل الى اعتراف العقلاء المبصرين والدهاة ولا الى اعترافه من يغمط الناس حق فضلهم وهم كثيرون، أن تكيد الناس بمباهاتهم به في الأحاديث والمجالس وبأن تظهر لهم أنك تعرف من فضلك أكثر مما يعرفون، فإن الناس قلما يغتفرون لك ذلك ويعدون فضلك إساءة اليهم وإنْ اعترفوا به سرًّا أو جهراً . وهم يحاولون انتزاع اليقين والثقة به من نفسك بأساليب مختلفة، ولكنك قد تحملهم بالملاطفة وسياسة التأسي وأساليبها على اغتفار الفضل لك — وكذلك اذا كان لك فضل على إنسان بأن صفحت عن ذنب له أو إساءة أو زلة أو إذا كنت قد انتشلته من وهدة منحطة كاد يتردى فيها وأزرت به؛ فليكن همك أن تنسيه فضلك عليه واطلاعك على سيئاته وموضع النقص منه . فإن كثيراً من الناس يحقدون على من اطلع على زلاتهم ونقائصهم وإن كان اطلاعه عليها من ناحية انتشاله اياهم من وهدة زلتهم ومعونته لهم وانقاذهم من عواقبها ، فإن تلك المعونة وذلك الانقاذ لا يعدلان لاغتفارهم اطلاعك على نقصهم . وفضلك في ذلك لا ينفع لك بل يزيد حزازة حقد من تفضلت عليه إلا اذا كانت لك لباقة تنسيه فضلك عليه واطلاعك على نقصه، وقد يكون مثلهم مثل المرأة التي لطمت سائق الترام الذي رآها قد زلت قدمها وكادت تسقط تحت الترام فجذبها الى نفسه وانقذها من الموت .

(١٥) الناس قلما يغتفرون ذنب من إذا شرعوا يحدثونه أسرع الى اظهار معرفته الحديث. وبعض الاغرار ومن لم ينتفع بتجاربه منهم ولم يجرب بهذا التسرع الى اظهار معرفتهم حديث

الحدث — كأنهم يخشون ان يحسب الناس انهم قد فاتهم شيء من أمور العلم والدنيا لم يدركوه ولم يطلعوا عليه قبل حديث المحدث وهو اطلاع لا يزدهم فضلاً بل نقصاً في نفس المحدث الذي لا يهمه أن يزن قدر علم من سبقه واستلب حديثه وانما يهمه أن لا يسلب منه جليسه كرامة نفسه وان لا يشعره الاستخذاء

(١٦) ينبغي للعاقل أن لا يظهر الامتعاض والغضب إذا ظهر عليه انسان بالحجة أو بذَّه هزواً وهاناً أو مزح معه مزحاً مستكرهاً . بل الكرامة والربح في أن يكظم غيظه وأن يسرّي عن نفسه وان ينظر الى هذه الامور كأنه يشاهد مشهداً في عالم آخر من غير تصنع للكبر المضحك المغالى فيه والذي يجعله كالممثل الهازل ومن غير هجار أو مهاترة لأنه بهما يضيع كرامته ، ومن غير أن يأذن لفكره وذاكرته في معاودة هذه الامور فيتعب ، ومن غير أن يلجأ الى التعريض في ثنايا كلامه بالسخر المعمى أو الواضح . وهذه أمور قد تسبب عداوات وثارات قد يشترك فيها أصدقاء خصمك وأقاربه ، فكأنك أثرت حول نفسك النحل من خليته وأقل ما في هذه الامور من الضرر اذا لم يتخذ خطة متسعة النواحي لاغتيابك أن يأذن ويبتسم صامتاً لمن يغتابك كما قال الشاعر .

فسامع الذم مقرّ به وقابل الغيبة كالقائل

(١٧) كثير من الناس لا يميزون بين التسامح والتسهل في المعاشرة وبين التملق والنفاق فيأبون التسامح ويرفضون التسهل ويضحون بحسن المودة وطيب العشرة بأن يراجعوا كل انسان فيما يصف به نفسه أو ينسبه اليها أو يغلطوه أو يكذبوه أو يكثروا من مخالفته مع ان بعض الناس يَعُدُّ القليل من مخالفته تكذيباً — ويفعل المغلّط المراجع المقاطع ذلك بدعوى نصرة الحق والانصراف عن التملق والنفاق ، وإنما يفعل ذلك خشية ان يظهر إنسان بفضل يدعيه أو رأي يرتئيه أو حجة يدلي بها وتوهم المغلط المقاطع نفسه إنه إذا لم يفعل ذلك أضاع كرامته ولم ينصر الحق وأعان على الباطل بسكوته وكأنما تهد الارض وتسقط السماء اذا لم يفعل ذلك فلا يميز الكبائر من الصغائر وإنما يكون الباطل الذي يحارب ما تختل به أمور الناس لا ما يتسهل ويتسامح فيه المشير في العشرة .

(١٨) أحسن ما تكون الفضيلة إذا أرادها المرء كما يريد نظافة جسمه للراحة والصحة

والعانية لا للمباهاة ، وكما ان المرء لا يطلع الناس على نظافته ولا يلفتهم اليها ولا يحدثهم بها ، كذلك الحازم العاقل لا يحدث الناس عن فضيلته .

(١٩) في أكثر الأحايين اذا قال الانسان قولة جرح بريئة جرّ اليها حديث تحدثه وكانت صلتها بالحديث أو بانسان مذكور فيه تفسرها فانها تنقل الى انسان آخر له صلة أيضاً بالحديث مبتورة ويخفي ناقلها صلتها بحديثه فتخرج عن معناها وتصير إهانة ، ولو ان ناقلها ذكر حديثه وصلته به ما كانت اهانة . فيحسن تجنب المزح البريء اعتماداً على صدق الناقل إذ كيف تكفل صدقه ؟

(٢٠) الحازم لا يشارك المغتاب بالكلام ولا يشاركه بالاصغاء والسكوت فقابل الغيبة كقائلها وإنما يجمل ان يقول انه لا يعرف من أمر الغيبة شيئاً وهو اذا لج في انكارها جنى فوائد منها ان الناس تبرئه من الغيبة وتعده غير متتبع أخبارهم فيقل حذرهم منه ، وكلما أمعن في اظهار الجهل والانكار أكثروا من تعريفه ما يدعون معرفته من أخبار غيرهم ، إذ ان الناس مشهورون بادعاء معرفة أخبار الناس وأسرارهم وكلما قلت معرفتهم زادت تهمتهم باطلاع معاشريهم على ما يدعون معرفته ، ومنهم من يستطيل بادعاء صداقة الناس بالباطل كي يستطيل بادعاء معرفة أخبارهم وأسرارهم بالباطل أيضاً .

(٢١) في الناس أصناف يجمل ان لا يشركهم العاقل في خاصّة شؤونه ، ولا أن يطلعهم على بواطن أمره وأخباره وأسراره . ومن هؤلاء الغرير الجاهل فانه يذيعها كي يشرف أنه عالم بالناس ، والخائن كي يوهم الأغرار ان غيرهم قد ائتمنه ، والماكر الداهية كي يفيد من اذاعته ما يستطيع ، والخبيث إذ أنه يحولها مادة صالحة للأذى يؤذي بها من أشركه في أمره ، والزميل الذي ربما جعلته الحياة منافساً فيتخذ منها مادة لمنافسة زميله وتنقصه كي يفوز في موضوع المنافسة بدلاً منه . والمنافس مهما كان شهماً ذا مروءة لا يؤتمن على سر أو خبر أو شأن خاص ، إذ ان المنافسة قد تحمل الناس على الانصراف عن سبيل المروءة حتى يفوزوا في المنافسة ، ثم يعودون الى مروءتهم وشهامتهم بعدها .

ع . ش